

الدَّمْرُ بْنُ تَوْلَبِ الْعُكْلِيِّ وَانْجَاهَاتِهِ الشَّعْرِيَّة

أ. د. زكريا صيام

جامعة الزرقاء – الأردن

المقدمة: تقتضي دراسة جزئية من جزئيات أدبنا القديم الرجوع إلى مصادر تتبدى فيها معلومات تمكن الدارس من الاهتداء بها، والسير بموجبها ضمن معالم محددة، ولكن إذا لم يتهياً مثل تلك المصادر فعليه أن يستكنه خفايا النص ويستكشف ما غمض من جوانبه، إضافة إلى ما تتلمسه يداه من متفرقات معرفية في بطون الكتب تعينه على بلوغ ضالته.

وهكذا الحال في دراسة الشاعر النمر بن تولب، الذي ضاع معظم شعره وخبت الروايات والأخبار حول سيرة حياته.

إلا أن ما بقي من شعره - في مرحلتيه الجاهلية والإسلامية - يغري باستقصاء أخبار الشاعر وصفات شخصيته، وهي شخصية جمعت مقومات زعيم قبيلة في الجاهلية من حيث الشجاعة والكرم والإباء، ومقومات صحابي جليل شهد الإسلام وحسن إسلامه، فكان واحداً من أجواد العرب والمسلمين.

واستطاع النمر أن يصقل موهبته الشعرية التي نمت وترعرعت في العصر الجاهلي، بصقال القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، حتى غدا ذا رسالة قل أن يبلغها شعراء عصره.

الأهداف: يمكن إيجاز الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها هذه الدراسة في الثلاثة الآتية:

أولاً - الإسهام في كشف جوانب من تراثا الأدبي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام من خلال شاعر مخضرم.

ثانياً - بيان أثر الدين في التطور الفكري والسلوكي والفني لدى النمر بن تولب.

ثالثاً - تمهيد سبل البحث أمام دارسي الشعراء القدماء الذين لم تتناولهم الأبحاث والدراسات بما يستحقون من اهتمام، ولو بالنزر القليل الذي يمكن أن تقدمه هذه الدراسة.

الملخص: تقوم هذه الدراسة على دعامتين أساسيتين:

الأولى: البحث في جوانب شخصية شاعر مخضرم، أمضى شطراً من حياته في العصر الجاهلي فارساً ورجلاً من أجواد العرب، وشطراً أمضاه في العصر الإسلامي صحابياً من أصحاب رسول الله، وحكيماً اكتسب الحكمة في شعره من تعاليم الدين.

الثانية: البحث في اتجاهاته الشعرية، وقد جاءت انعكاساً للقيم المتمثلة في شخصيته، حتى رأينا فنون شعره تخلو من موضوعي المدح والهجاء، اللذين يخرجان كثيراً من الشعراء عن إطار الاعتدال والواقعية.

وانطلاقاً من المعطيات الفنية، التي يلمسها قارئ ديوانه، يمكن أن يُعدَّ "النمر" شاعراً مطبوعاً، غير متكلف التعبير عن أحاسيسه، إذ كان ينتقي مفرداته اللغوية، استجابة لما قرَّ في نفسه من أفكار ومعاني، دون انتظار إعجاب الناس بشعره، أو استهجانهم له.

حياته: هو النمر بن تولب بن زهير بن أقيش بن عبد بن كعب بن عوف بن الحارث بن قيس بن عبد مناة ابن أد العُكُلي، وعُكُلُ أمة¹ حضنت ولد عوف فغلبت على اسمهم.

والنمر شاعر مخضرم، تأتي أخباره الجاهلية متناثرة هنا وهناك، وهي متباعدة لا تقدم صورة عن حياته أو شخصيته، فما جاء من شعره الجاهلي جزء

يسير من شعره الذي ضاع أكثره، وأما شعره الإسلامي فقد نظمه في الشطر الثاني من حياته، وهو يرسم شخصيته ويوضح صفاته بعد دخوله الإسلام.

وتتفق الروايات على خبر وفوده على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسماعه الحديث الشريف منه. وبلغ من ثقة الرسول به أن بعثه إلى قوم في سوق المريد يدعوهم إلى الإسلام، فقد ذكر ابن سلام في طبقات فحول الشعراء أن خلاد بن قرّة بن خالد السدوسي عن أبيه عن سعيد بن إياس الجري، عن أبي العلاء يزيد بن عبد الله بن الشخير قال:²

بينما نحن جلوس في المربد، إذ أتى علينا أعرابي أشعث الرأس، فقلنا: والله لكأن هذا ليس من أهل هذا البلد، قال: أجل والله. وإذا معه قطعة من جراب أو أديم، فقال: هذا كتاب كتبه لي محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخذناه فقرأناه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله، إلى بني زهير بن أقيش - قال الجري: هم حي من عكل - إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وفارقتم المشركين، وأعطيتم الخمس من الغنائم وسهم ذي القربى، والصفى، فأنتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله، فقال له القوم: حدثنا، أصلحك الله، بما سمعت من رسول الله، قال: سمعت رسول الله يقول: صوم شهر الصبر، وصوم ثلاثة أيام من كل شهر، يذهبن وحر الصدر قال له القوم: أأنت سمعت هذا من رسول الله؟ قال: أراكم تخافون أن أكذب على رسول الله. لاحتكم حديثاً. ثم أوماً إلى صحيفته، ثم انصاع مدبراً. "وفي حديث قرّة بن يزيد: فقل لي لما ولى: هذا النمر بن تولب".

ومن أخبار النمر زواجه من امرأة تدعى "جمرة" على غير رغبة منها، كان أخوه أغار على بني أسد وسباها، فوهبها لأخيه النمر، وما أن تمكنت من

خديعته وفراقه حتى عاش بعدها متحسراً، ثم تزوج من امرأة اسمها "دعد" أمضى معها بقية عمره.

شخصيته وأخلاقه: لعل من يتتبع ما وصل إلينا من شعر النمر يتبين بعض جوانب شخصيته، فقد كان ذا همة ومروءة، وكان صادقاً يكره النفاق، ولا يعادي أحداً، ولهذا قال عنه أبو عبيدة "لم يمدح أحداً ولا هجا".

وذكرت الروايات أنه من أجواد العرب وفرسانهم المشهورين، وكان أبو عمرو بن العلاء³ يشبه شعره بشعر حاتم الطائي لما ينم عن بذل وسخاء، حتى أنه قدم الفحل الوحيد من إبله لسائله. وربما كان طبعه الأصيل في العطاء يثير غضب زوجته فتعتب عليه وتلومه، ولكنه يجيئها بما يصدر عن قناعتها إزاء مواقفه السخية وعدم تردده في بذل ما عنده.

وأكسبه طول العمر تجارب كثيرة تمخض عنها الحكمة والبصيرة في أمور الدنيا والآخرة، فأدرك زيف الحياة وخداعها، واعتقد بأهمية الرجوع إلى الله كي يفوز بما وعد الخالق - سبحانه - عباده الصالحين في الآخرة.

وأزعم أن هذا البحث حاول الكشف عن جوانب أخرى من شخصية النمر ورسوخ عقيدته من خلال دراسة نماذج تطبيقية من شعره، وأسهم في إبراز القيم والمثل التي تحلت بها شخصيته.

شعره: يمكن تصنيف شعر النمر في إطار المطبوع لا المصنوع، ذلك أنه جاء استجابة لما يختلج في نفسه وصورة عن دخائل سريرته، فقد عرف عن النمر عفوه وحسن خلقه، وشجاعته وصدق مشاعره، فلم يتكسب أو يبتذل فنه استرضاء ل أحد أو استعداد لغيره، فخلا ديوانه - بجملته - من المديح والهجاء وقلمما يشابهه في ذلك شعراء مخضرمون أو غير مخضرمين.

واتجه شعره إلى مسالك فنية يغلب عليها صدق العواطف والالتزام بالمواقف الثابتة. ووفر لشعره سلامة الشكل والمضمون، وما أن بدأ الشطر الثاني من حياته

بدخوله الإسلام حتى رقت ألفاظه وعذبت أساليبه وارتقت تراكيبه متأثراً بالقرآن الكريم وبالحديث النبوي الشريف. فقال مشيداً بدعوة الرسول:⁴

إِنَّا أَتَيْنَاكَ وَقَدْ طَالَ السَّفَرُ
نَقُودُ حَيْلًا ضُمُّراً فِيهَا ضَرَرُ
نُطْعِمُهَا اللَّحْمَ إِذَا عَزَّ الشَّجَرُ
وَالْخَيْلُ فِي إِطْعَامِهَا اللَّحْمَ عَسَرَ
يَا قَوْمُ إِنِّي رَجُلٌ عِنْدِي خَبَرُ
اللَّهُ مِنْ آيَاتِهِ هَذَا الْقَمَرُ
وَالشَّمْسُ وَالشَّعْرَى وَآيَاتُ أُخَرُ

وهذه الأرجوزة إعلان دخوله الإسلام، وسيجد القارئ ما ذكرناه من تأثير الشاعر بالدين الجديد في ثيايا النماذج الشعرية التي نعرض لدراستها وخاصة الحكمية منها.

ومن صور اقتدائه ببلاغة الرسول فيما عرف عن صحبته له، وسماعه الحديث النبوي، تلك المعاني والمضامين الجديدة، والألفاظ السهلة والتراكيب العذبة، التي استوقفت القدامى عند شعره الإسلامي، فقد ذكر الثعالبي⁵ أن النمر بن تولب وحميد بن ثور والناطقة الجعدي اجتمعوا على معنى قول النبي - صلى الله عليه وسلم - "كفى بالسلامة داءً" فتناقلوه، وكأنما رموا بقوس واحدة شكلاً ومضموناً، فقال النمر:

يُودُ الْفَتَى طُولَ السَّلَامَةِ جَاهِداً
فَكَيْفَ تُرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ؟

وقال حميد:

أَرَى بَصْرِي قَدْ رَابَنِي بَعْدَ صَحَّةٍ
وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصَحَّ وَتَسْلَمَا

وقال الجعدي:

وَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدًا

لِيَصِحَّنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ

ولدى مناجاته ربه مناجاة العبد المقرّ بعظمته - سبحانه - يقول النمر:⁶

أَعِدَّنِي رَبٌّ مِنْ حَصْرٍ وَعِيٍّ

وَمِنْ نَفْسٍ أَعَالَجَهَا عِلَاجًا

وَمِنْ حَاجَاتِ نَفْسِي فَاعْصِمْنِي

فَإِنْ لِمُضْمَرَاتِ النَّفْسِ حَاجَا

وَأَنْتَ وَلِيُّهَا وَبَرِّئْتُ مِنْهَا

إِلَيْكَ وَمَا قَضَيْتَ فَلَا خِلَاجًا

وقد تبوّأ منزلة شعرية كبيرة بين شعراء عصره، فعده ابن سلام من فحول الطبقة الرابعة، وعده أبو زيد القرشي من الطبقة الثانية، وسمّاه أبو عمرو بن العلاء⁷ الكيس لجودة شعره، وأطلق عليه بعض⁸ المؤرخين تسمية شاعر الرباب في الجاهلية، وذكر ابن سلام في طبقاته أن شعر النمر قد تميّز بخصائص لغوية وفنية ومعنوية جعلت⁹ المؤلفين يستشهدون بشعره، ولولا ذلك لضاع ما بقي من شعره.

فَخْرُهُ: كان النمر يولي موضوعات ثلاثة اهتمامه أكثر من غيرها في ديوان شعره، يتمثل الأول منها بموضوع الفخر، والمراد بالفخر هنا كل ما يتصل بمواقفه التي يعتدّ بها وكل ما يتصل بإبراز "الأنا" من عمق واتساع، حيث كان زعيم قومه فعمل على إبراز مواقفه إزاء محبيه وأصدقائه وقومه ومواقفه أيضاً نحو أعدائه وكارهيه، ويتمثل ثاني موضوعاته بتصوير تجربته الحياتية مع زوجته "جمرة"¹⁰ وكان شعره فيها ترجمان صدق للعلاقة الجدلية بينهما

والموضوع الثالث يأتي تحت باب الحكم والوصايا وما يتصل بهما، وجاء هذا الباب شاملاً لأكثر مراحل عمره نضجاً وثراءً فنياً.

أما عن الفخر فكان النمر ورجاله في يوم "النَّهَاب" يرفعون القنا السمهرية في وجه أعدائهم، تأكيداً على الثقة بالنصر، وحين يفخر النمر بانتصاره وقومه على بطن "يشكر" من ربيعة إنما يسجل تلك الواقعة بوجهيها المتضادين، حيث تتضح قسّمات الوجه الأول بتسامي الشاعر ورجاله وهم مقبلون على أرض المعركة كأنهم فحول تجسدت فيهم الشجاعة والقوة، وأما الوجه الآخر فيتمثل بحرص أعدائهم على الحياة بأي ثمن ولو لحق بهم ذل الفرار والهزيمة، وهكذا يأتي بصورتين متغايرتين تماماً لكل من الفريقين مبيناً الحالة النفسية لهؤلاء وهؤلاء والغاية المتوخاة لدى هذا وذاك، والفرق شاسع بينهما، يقول:¹¹

سَمَوْنَا "لِيَشْكُرَ" يَوْمَ "النَّهَابِ"

نَهْرُ قَنَا سَمَهْرِيًّا طَوَالاً¹²

فَلَمَّا التَّقِينَا وَكَانَ الْجَلَادُ

أَحْبَبُوا الْحَيَاةَ فَوَلَّوْا شِلَالاً¹³

ومن مواضع فخره يوم "الكُلاب" الذي ردّ فيه ملوك اليمن وكندة على قبيلة تميم بعد "الكُلاب" الأولى، وكان النمر قد رأس قومه في هذه الواقعة التي أحرزوا فيها النصر على أعدائهم فحق له أن يفخر بمجريات أحداث ذلك اليوم المشهود، ولا ينسى أن يولي بعيره شيئاً من المباهاة ضمن موضوع الفخر فهو رفيق دربه في اجتياز الصحراء لملاقاة الأعداء وهو الذي يشهد لراكبه أو عليه في ساح الوغى، إذ يقول الشاعر:¹⁴

ويوم "الكُلاب" رَأَسْنَا الْجُمُوعَ

ضِرَاراً، وَجَمَعَ بَنِي مَنَقَرٍ¹⁵

أَجَزْتُ إِلَيْكَ سُهوبَ الْفَلَاةِ

وَرَحَلِي عَلَى جَمَلٍ مِسْفَرٍ¹⁶

طويل الذراع، قصير الكراع

يواشِكُ بالسَّيْسَبِ الْأَغْبَرِ¹⁷

وتفاخر الشاعر براحلته غير مقتصر على الذكور من الإبل، ففي الناقة سمات تضاهي ما في البعير من سمات عضوية أو نفسية، وقد يشتركان في الصبر على تحمل مشاق السفر وفي استجابة داعي السرعة "المواشكة" التي كانت القاسم المشترك بين البعير المذكور في الأبيات السابقة والناقة السمحة التي تشبه الفحل في سرعتها وذكائها في قوله بموضع آخر:¹⁸

قَطَعْتُ بِسَمْحَةٍ كَالْفَحْلِ عَجَلَى

مُؤَاشِكَةٍ إِذَا جَنَحَ الْأَصِيلُ¹⁹

ولا بد من ملاحظة روح المطاوعة لدى الراحلة وقابليتها لإمداد صاحبها بما تقتضيه الأحوال، فالقوة الجسدية وسماحة الطبع وسرعة البديهة تتفق مع المواشكة - وزن مفاعلة - ويواشك - وزن يفاعل - في البعير والناقة على حد سواء. ومن غرائب التشبيهات ما ذهب إليه النمر في تشبيه نفسه بسيف غرس في الأرض إثر ضربة شديدة فلم يظهر منه إلا بقية قليلة، بل إن الشاعر يغالي في مضي السيف داخل الأرض حتى أن المرء لا يبلغه إلا بعد تعمقه مسافة طول جسده ويديه وعنقه، ولعله أراد من ذلك تبيان الصلابة والمضاء في المشبه والمشبه به وطول التجربة وسعة المعرفة في المشبه لكثرة ما شهد من حوادث الأيام، فيقول:²⁰

أَبْقَى الْحَوَادِثُ وَالْأَيَّامُ مِنْ نَمِرٍ

أَسْبَادَ سَيْفٍ قَدِيمٍ إِثْرُهُ بَادٍ²¹

تَظَلُّ تَحْفَرُ عَنْهُ إِنْ ضَرَبَتْ بِهِ

بَعْدَ الدَّرَاعَيْنِ وَالسَّاقَيْنِ وَالْهَادِي²²

وهذه الثقة المفرطة بالنفس تحفز صاحبها نحو ركوب الأخطار كي يصيب هدفاً، ولا بأس في ذلك إن كان الهدف يسمو بصاحبه إلى مرتبة أعلى ولا بأس في ذلك أيضاً إذا ابتعد به عن مسألة الآخرين ونأى به عن مذلة الفقر والفاقة، ثم يعمد الشاعر في التعبير عن أفكاره إلى أسلوب التجريد، فيخاطب نفسه بمقارنة الضد بال ضد، مذكراً بأن المخاطرة بالنفس من أجل الغنيمة خير من التقاعس والجلوس بين العيال، أما اكتسابك المال فيمنحك الإباء والهيبة وأما استكانتك للفقر فتعقب لك المذلة وقبح الحال، يقول:²³

خَاطِرُ بِنَفْسِكَ كِي تُصِيبَ غَنِيمَةً

إِنَّ الْجُلُوسَ مَعَ الْعِيَالِ قَبِيحٌ²⁴

فَالْمَالُ فِيهِ تَجَلَّةٌ وَمَهَابَةٌ

وَالْفَقْرُ فِيهِ مَذَلَّةٌ وَقُبُوحٌ²⁵

ولا ينحصر فخر النمر في ما يتحلى به من شجاعة ورباطة جأش في الأسفار والحروب، ولكنه يشمل الوفاء بالعهد والحفاظ على الشرف والمثل العليا أيضاً، والنمر من الرجال الذين يحكمون السيطرة على أهواء النفس وميولها، فمهما بلغت الحسان من دهاء وبراعة في النفاذ إلى أسرار الرجال فإنهن لا يستطعن الاطلاع على أسرارهن، وهو ذو عهد وصدق يحفظ للقريب والبعيد ما أوتمن عليه من عرض وشرف حتى يشهد له الناس بعد موته بما شهدوا له في حياته من الإخلاص واجتناب العار، يقول:²⁶

لَا يَعْلَمُ اللَّامِعَاتُ اللَّامِحاتُ ضُحَى

مَا تَحْتَ كَشْحِي وَلَا يَعْلَمُنَ أَسْرَارِي²⁷

وَلَا أَخُونُ ابْنُ عَمِّي فِي حَلِيلَتِهِ

وَلَا الْبَعِيدُ نَوَى عَنِّي وَلَا جَارِي²⁸

حَتَّى يُقَالَ إِذَا وُورِيتُ فِي جَدَّتِي

لَقَدْ مَضَى نَمِرٌ عَارٍ مِنَ الْعَارِ²⁹

ويتبين قارئ الأبيات شيوع حروف المدّ واللين في معظم ألفاظها، وقد يقع في اللفظ الواحد حرف مدّ مكرراً مرتين نحو: اللامعات، اللامحات، أو حرفان مختلفان، نحو: أسراري، جاري، العار - بمدّ الراء المكسورة - وكذلك حرف المدّ في كل من الألفاظ التالية: "لا، ضحى، ما، كشحي، لا" في البيت الأول. "لا، أخون، عمي، في، حليلته، لا، البعيد، نوى، عني، لا" في البيت الثاني "حتى، يقال، إذا، ورّيت، في، جدثي، مضى، عار، العار" في البيت الثالث. ولكثرة هذه الحروف دلالة على المنعة النفسية لدى الشاعر، ومرونة شخصيته في معاملة الناس، فلا يبدو منه لغيره إلّا ما أراد له أن يبدو ولا ينفذ أحد إلى ما في سريره إلّا بإرادته.

أضف إلى ذلك كله ما أشرقت به في النفس هذه الحروف وما صنع اختياره وزن "فاعلات" مكرراً في صدر البيت الأول محلّى بأل التعريف: اللامعات، اللامحات، وصيغة جمع المؤنث السالم في كل من هذين اللفظين وتأكيد عدم علمهن بتكرار الفعل المضارع "يعلم" المنفي "بلا" في الشطر الأول و"يعلم" المتصل بنون النسوة في عجز البيت ذاته. والترادف السياقي بين "ما تحت كشحي" و "أسراري" الذي يفيد معنى الإخفاء والإضمار. وربما حدّد الوقت بأنه "ضحى" لعادة كانت عند العرب حين تجلس النسوة من حول الرجل المعطاء، في محاولة منهن أن يثنيه عما هو فيه من بذل المال فينفذن إلى بعض أسرارهم. ونشير هنا إلى انتقائه بحر "البسيط" من بين الأبحر العروضية لانسجامه مع ألفاظه المنتقاة بهدف تكامل الشكل والمضمون لدى الشاعر ما دام في معرض خصاله التي يحلو له أن يتغنى بها ويؤكد تأصيلها في ذاته، والتي من بينها عدم خيانة الأقارب والأباعد ليلقى حتفه مُبرراً من أي عار.

ولا يخفى على قارئ الأبيات حرص الشاعر على تكثيف أدوات النفي والإثبات، فقد كرر "لا النافية" خمس مرات في البيتين الأول والثاني، وأسبق

"قد" بلام التوكيد في عجز البيت الثالث، فضلاً عن ذكر اسمه "نمر" مع أنه هو المراد ضمناً من غير ذكر اسمه، حيث جاء ثمانية ضمائر متصلة ومستترة في الأبيات وكلها عائدة عليه.

ومن ألوان الزخارف التي أودعها هذه الأبيات إضافة لما سبق ذكره الترادف الصريح في لفظي اللامعات واللامحات، والتضاد في البعيد والجار والتورية في العار والعار، وما أوحى به انسيابية موسيقى حروف المدّ عبر أمواج البحر البسيط.

لم يكن النمر عصيّ الاستجابة للنساء اللواتي حاولن ثنيه عن سخائه فحسب، ولكنه عصيّ على العاذلين جميعاً حيثما كانوا، ففي موضع آخر يوضح يأسهم من بلوغ أهدافهم منه، حتى ألقوا حبله على غاربه، وهذا تعبير جاهلي يستعمله الرجل حين يطلق زوجته فيقول لها: "حبلك على غاربك" إشارة إلى إخلاء سبيلها، وأصله أن الجاهلي كان يلقي خطام ناقته - إذا رعت - على كاهلها لئلا تنزع منه في مرعاها.

ثم يلتفت إلى امرأة ربما تظاهرت بالهزء منه لكثرة إنفاقه المال، ولكنها في قرارة نفسها معجبة برجولته وتتمنى أن يرقى ابنها في المستقبل رقيّه، وأن يصبح زوجها مثله عزيز الجانب في قومه، فيقول:³⁰

وَلَمَّا عَصَيْتُ الْعَاذِلِينَ وَلَمْ أُبَلِّ

مَلَامَتَهُمْ، أَلْقَوْا عَلَيَّ غَارِبِي حَبْلِي³¹

وَهَازِئَةً مَنِّي تَوَدُّ لَوْ ابْنُهَا

عَلَيَّ شِيمَتِي، أَوْ أَنَّ قِيَمَهَا مِثْلِي³²

الاحتراس في القول أمر من أمور اللياقة وشأن من شؤون اللباقة لا سيما إذا كان المخاطب على درجة مهمة بين قومه، يدوم سيّبه بلا انقطاع، ويفتح قلبه لمعتفيه، وهذا ما توحّاه النمر لدى زيارته رجلاً ذا جاهٍ بين قومه فبادر إلى القول

"أَتَيْنَاكَ لَا مِنْ حَاجَةٍ" درءاً للشك في قدومه على كبير القوم وهو قاصد طلب العون، ويؤكد المعنى بوجه آخر وهو نفي أن يكون مطالباً بإيفاء أي حق نحو غيره، ويستدرك بعد ذلك توضيحاً لا بد منه، وهو أن الذي دعاه لزيارة ذلك الرجل همته العالية وشعوره بمسؤولية الرجل الكريم نحو مثيله الرجل الكريم، فلا غرو أن يبادر ذو الهمة إلى زيارة الرجل السمع المعطاء الذي يشبه السحاب في عطائه. يقول:³³

أَتَيْنَاكَ لَا مِنْ حَاجَةٍ أَجْجَفْتُ بِنَا

وَلَا أَنَا عَلَيْنَا الْمَطَالِبُ

وَلَكِنْ دَعَنْتَنِي هِمَّتِي حِينَ أْبْلَغْتُ

إِلَيْكَ وَخَالَ مِنْ نَوَالِكَ هَاضِبٌ³⁴

فأسلوب الاحتراس هنا يفيد الاعتداد بالنفس والفخر بالخصال التي تميز بها النمر.

ويفخر باستهلاكه ماله في الكرم دون إلحاق ضرر بأموال الآخرين، فهو لا يهلكه في طعامه ولباسه أو من أجل إشباع رغباته الدنيوية، ولا يضيعه في غير استحقاقه كي يلومه اللاتمون، ولكنه ينفقه في أبواب الخير المتمثلة في سد حاجات الفقراء والمساكين وذوي الأرحام، فيقي بذلك شرفه وعرضه ويجعل المال صوناً لكرامته.

هَبْ أَنْكَ اخْتَلَفْتَ مَعَ النَّمْرِ فِي إِنْفَاقِ الْمَالِ، وَهَبْ أَنْكَ اخْتَلَفْتَ عَنْهُ فِي النَّظَرَةِ إِلَى الْمَالِ وَالتَّصَرُّفِ بِهِ، - فحِينَئِذٍ - لَنْ تَجِدَ مِنْهُ ضِيقاً بِنَظَرَتِكَ نَحْوَهُ، لِأَنَّهُ يَصْدُقُكَ الْقَوْلُ وَيُدِيرُ حَوَاراً مَعَكَ قَائِماً عَلَى الْإِقْنَاعِ كَمَا نَرَى فِي تَعَابِيرِهِ: "يَلُومُ أَخِي" "وَلَا ضِيعَتَهُ" "وَلَكِنْ كُلَّ مَخْتَبِطٍ..." "يَقُولُ" "أَلَا اسْتَمَعَ" "أَنْبُئَكَ" "أَغْنِي لِّلَّهِ" "وَإِعْطَائِي ذَوِي الْأَرْحَامِ" "وَتَوْسِيعِي لِذِي عَجْزٍ" ويختم أبياته بغاية سامية تتحقق بعد ذلك كله "أَقِي حَسْبِي بِهِ وَيَعِزُّ عَرْضِي".

وإذن جاء فخره بالإنفاق من مفهوم إيجابي يريد به خير الفقراء والمحتاجين، ليتضح لنا جانب مهم من شخصية النمر، وهو يسعى إلى مكانة رفيعة بين قومه، يقول:³⁵

يَلُومُ أَخِي عَلَى إِهْلَاكِ مَالِي
وما أَنْ غَالَهُ ظَهْرِي وَبَطْنِي
ولا ضِيْعَتُهُ فَأُلَامُ فِيهِ
فإِنَّ ضِيَاعَ مَالِكَ غَيْرُ مَعْنٍ
ولكن كلَّ مختبِط فقير
يقول: أَلَا اسْتَمِعْ؛ أَنْبُكَ شَأْنِي
ومسكين وأعمى قال يوماً:
أَغْنِي لِلإِلهِ وَلَا تَدْعُنِي
وإعطائي ذوي الأرحام منه

وتؤسيعي لذي عجز وضمف³⁶
أقي حَسْبِي به وَيَعِزُّ عِرْضِي
عَلَيَّ إِذَا الْحَفِيظَةُ أَدْرَكَتْنِي

وحين يتصل الفخر بوقائع المعركة يذكرنا بفروسية عنتره ومفردات معجمه الحربي وصوره الفنية، يقول النمر في أبياته الآتية:³⁷
وَلَقَدْ شَهِدْتُ الْخَيْلَ وَهِيَ مُغِيرَةٌ
وشهدتها تعدو على آثارها

وَحَوَيْتُ مَعْنَمَهَا أَمَامَ جِيَادِهَا
وَكَرَرْتُ إِذْ طُرِدْتُ عَلَى أَدْبَارِهَا
ولقد شَفَيْتُ مِنَ الرُّكَّابِ وَمَشَيْهَا

ورَفِيفِهَا نَفْسِي وَمِنْ أَكْوَارِهَا³⁸

نستذكر فخر عنتره في معلقته، بل إن القراءة المتأنية للبيت الأول تدخلنا في جو البطولة العنترية الفذة حين كان يخاطب عبلة، فقلوه: "ولقد شهدت الخيل وهي مغيرة" يعني تأهله لخوض المعركة من أوسع أبوابها، فالخيل مقبلة وعلى ظهورها فرسان مغاوير، بينما النمر في أعلى درجات الأهبة لخوض المعركة لقلوه "ولقد شهدت" فالمشاهدة في عرف القتال هنا المشاركة وأكد الفعل "شهد" - باللام وقد - في آن واحد، ثم أتى بواو الحال قبل الضمير "هي" مباشرة توضيحاً للصورة الفنية التي شملت في إطارها القوم المغيرين بخيلهم وأسلحتهم وملاقاته لهم على رأس رجاله وقد أقبل كل من الفريقين باتجاه الآخر دون إبطاء، وأما قوله: "وشهدها تعدو على آثارها" يوضح الصورة من الوجه الآخر، فبعد أن تم اللقاء وانتهت الموقعة بانتصاره على الأعداء شاهدتهم يفرون من أرض المعركة بالخزي والعار، فجعل من شطري البيت وجهين متضادين لصورة المعركة تضمن الأول إقبال الأعداء والثاني إدبارهم، "وهي مغيرة" تعدو على آثارها.

ويختلف موقف الإثنيين - النمر وعنتره - إزاء المغنم الحربي، فالنمر يسارع إلى "إحتواء المغنم" والسيطرة عليه لأنه انتزعه انتزاعاً من أيدي الأعداء، بينما يبلغ عنتره درجة يكاد ينفرد بها بين المقاتلين "وأعف عند المغنم" فيترك المغنم لرجاله مع أنه كان في مقدمة القوم داخل المعركة.

وتعبير النمر "ولقد شفيت... نفسي" من الصياغات العنترية أيضاً، فلا يشفي نفوس الأبطال في أرض المعارك إلا النصر على أعدائهم ولذلك عمد النمر إلى تأكيد خبر الشفاء باللام وقد، ونراه يسبغ على أبياته ثوب المحسنات البديعية، فاتخذ من حرف "الواو" نافذة مطلة على كل شطر من أشطر الأبيات في بداية كل صدر وعجز، إضافة إلى نشر الواوات داخل الجمل حتى بلغت في

مجموعها اثني عشر واواً، وتكررت "لقد" مرتين والفعل "شهد" مرتين، وحرف الجرّ "على" مرتين، و"من" مرتين والهاء المتصلة بالألف "ها" ثماني مرات، وعني بإبراز الضمير "الأنا" في أبياته فجاءت تاء المتكلم خمس مرات أتبعها بكلمة نفس مضافة إلى ياء المتكلم.

ومن بين المحسنات البديعية كذلك التضاد السياقي في "مغيرة" و"تعدو على آثارها" و"أمام" و"أدبارها" و"الكر" و"الطرد" والترادف بين "مشيها" و"زفيها".

"جَمْرَةُ" فِي شِعْرِهِ: عرف عن النمر زهده وإحجامه عن المديح والهجاء فلم يمدح أحداً ولم يهج أحداً وكأنه أراد أن يشغل حيز هذين الفئتين بالحديث عن تجربته المريرة مع إحدى زوجتيه وهي جمرة بنت نوفل، فقد منحها حبه ووفاءه وأنجب منها أولاداً، ولكنها لم تبادله حبا أو وفاء بسبب زواجه منها قسراً، فقد أغار أخو النمر ويدعى "الحارث" على بني أسد وسبى "جمرة" ثم وهبها لأخيه مما جعل الزواج أشبه ما يكون بزواج من طرف واحد دون تراضي الزوجين، فأضمرت في نفسها غيظاً استمر سنوات، حتى أتيح لها الهرب إلى زوجها الأول من بني أسد مما ترك أثراً عميقاً في نفس النمر حتى كره النساء من بعدها وأصبح يظن كل امرأة تسر الغدر لزوجها، وأخذ يعتزل قومه شيئاً فشيئاً إلى أن ساءت حاله فنصحته المقربون منه بالزواج من امرأة أخرى، ولم تطاوعه نفسه إلى حين، وبعد ذلك تزوج من امرأة تدعى "دعد" أخلصت له الحب، فأحبها وشغل بها، فقال فيها:³⁹

أَهْيَمُ بِدَعْرِ مَا حَيَّيْتُ، وَإِنْ أُمْتُ

فَوَاكِبُ دَاعِيَتْ عَلَى دَعْرِ⁴⁰

وعودة إلى حديثنا عن "جمرة" فقد استأذنته في زيارة أهلها الذين غادرت ديارهم منذ يوم سببها على يد أخيه، فأبى أن يأذن لها، وبقيت تلح عليه وواثقته أن تعود إليه، فرافقها الدرب إلى أن بلغا مشارف منازلهم، وأرسلها بينما هو

ينتظر عودتها في مكان يكثر فيه شجر ذو ظلال تسمى الواحدة منها "سرحة" ولم تعد، وأدرك أنها خدعته، بل إنه علم - فيما بعد - بعودتها إلى زوجها الأول فكانت الطامة الكبرى في حياته، وأحس بأنه أخيب خائب، فقال:⁴¹

جَزَى اللَّهُ عَنَّا جَمْرَةَ ابْنَةِ نُوْفَلٍ

جَزَاءً مُغِلًّا بِالْأَمَانَةِ كَاذِبٍ⁴²

لَهَا نَ عَلَيْهَا أَمْسَ مَوْقِفُ رَاكِبٍ

إِلَى جَانِبِ السَّرْحَاتِ أَخِيْبٍ خَائِبٍ⁴³

وَقَدْ سَأَلْتُ عَنِي الْوَشَاةَ لِيَكْذِبُوا

عَلَيَّ، وَقَدْ أَبْلَيْتُهَا فِي النَّوَائِبِ⁴⁴

وَصَدَّتْ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَحْتَ قِنَاعِهَا

بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضَّتْ بِحَاجِبٍ⁴⁵

نظر النقاد القدماء إلى جمال الصورة الفنية في صدور المرأة فقالوا:

"أحسن ما قيل في الوجه، قول قيس بن الخطيم:⁴⁶

تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ

بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا، وَضَّتْ بِحَاجِبٍ

مأخوذ من قول النمر بن تولب:

وَصَدَّتْ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَحْتَ قِنَاعِهَا

بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضَّتْ بِحَاجِبٍ

وهو أحسن ما قيل عن إغراض المرأة .

إذا كان "التجريد" لوناً من ألوان التعبير الشعري فيخاطب الشاعر نفسه مجرداً منها شخصاً آخر على نحو ما ورد في المعلقات وغيرها لشدة الوَلَه وتعلق الشاعر بمحبوبته، فإن ما أصاب النمر من هلع كاد يفقده وعيه أخرى به أن

يحدث نفسه ويجرد منها شخصاً وهمياً، قائلاً: لقد وقع ما كنت تحاذره وتخشاه، فما هي قد اتخذت قرارها بقطيعتك إلى غير رجعة وحال دون وصالها أحداث وأهوال، ولم تعد "أجاً" و"جبة" وغيرهما من مواضع ذكرياتك ذات جدوى، وكأن جمرة في خداعها لك وتقلب مواقفها معك روضة "الدقري" التي تكثر فيها الورود والأزهار بألوان خلابة وسرعان ما تتغير تلك الألوان بتغير ساعات الليل والنهار فما أن تصطبغ في وقت بلون معين حتى يتغير في وقت آخر ولهذا يخاطب نفسه قائلاً:⁴⁷

صَرَمْتُكَ "جمرة" واستبد بدارها

وَعَدْتُ عوادي الحرب دون مزارها

زَيْنْتُكَ أركانُ العدوِّ فأصبحتُ

أجاً وجبةً من قرار ديارها⁴⁸

وكانها دَقْرِي تَخِيلُ نَبْتَهَا

أُنْفُ يَغْمُ الضَّالَّ نَبْتُ بحارها⁴⁹

لقد طرأت مفردات جديدة على قاموس النمر الشعري بعد فراق زوجته من بينها: "صرمتك، زينتك، استبد" على نحو ما ورد في أبياته هذه، وكما يرد في أبياته الآتية مثل: "شطّط"، "نأي وطول بعاد" "عزّت لها شبةاً" وما إلى ذلك من تعابير دالة على فجيعته بفراقها. ولا يكتفي بالإشارة إليها عن طريق الضمير وإنما يذكر اسمها بين الحين والآخر تأكيداً على مكانتها المتميزة في قلبه فحين أخبرنا بهجرها قال: "صرمتك جمرة" في الأبيات السابقة، وحين أخبرنا في أبياته القادمة عن هجرها أيضاً بقول له: "شطّط بجمرة دار" وعن استحالة تعويض مكانتها في نفسه يقول: "كأن جمرة ... " وها هي أبياته التي تحمل معاني الحسرة على فراقها واليأس من لقاءها:⁵⁰

شَطَّطْتُ "بِجَمْرَةِ دَارٍ بَعْدَ إِلْمَامِ

نأى وطولُ بعادٍ بين أقوام

حَلَّتْ بِتَيْمَاءَ فِي قَوْمٍ إِذَا اجْتَمَعُوا

⁵¹ فِي الصُّبْحِ نَادَى مَنَادِيهِمْ بِأَشْنَامٍ

كَأَنَّ "جَمْرَةَ" أَوْ عَزَّتْ لَهَا شَبَهَا

⁽⁵²⁾ فِي الْعَيْنِ يَوْمَ تَلَاقَيْنَا بِأَرْمَامٍ

مَيْثَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسِيلٌ هَطِلٌ

⁵³ فَأَمْرَعْتُ لاحتِيَالٍ فَرَطَ أَعْوَامٍ

إِذَا يَجِفُّ ثَرَاهَا بَلْهَا دِيمٌ

⁵⁴ مِنْ كَوَكَبٍ نَزَلَ بِالماءِ سَجَامٍ

لم تعد الدار التي كانت تجمعهما زوجين هائئين قائمة، فقد حلت جمرة في دار نأى وطول بعاد بين أقوام غرباء عن النمر، وغدا وصالها أمراً محالاً، فأهلها إذا ما اجتمعوا حيناً في "تيماء" هبوا للرحيل إلى ديار الشام فلا أمل له بلقائها مع أن قلبه متبل بجمالها، لم لا وهي التي يعز أن يكون لها شبه بين بنات جنسها؟ ويستغرق الشاعر في تصوير الطبيعة الخلابة لما بينها وجمرة من سحر وبهاء، وربما استحضر صورة روضة قريبة من صورة جمرة في مخيلته ومن مزايا هذه الروضة ارتواؤها بوابل هادئ تمرع الأرض من خلاله بأنواع الزهر فتبعث البهجة في نفس الناظر إليها، وما أن يجف ترابها حتى يبتلّ بأمطار ديم تسح من السماء سخيّة رحيّة.

وهكذا لم يجد النمر شبيهاً لزوجته في الحسن والجمال - إن كان لها شبيه - غير الروضة الغناء بأزهارها وعبيرها ومباهجها. فهل كانت النظرة المثالية للمرأة في الشعر القديم موجهة الشعراء إلى استلهاهم الطبيعة في بناء الصورة الفنية والتقاط مكوناتها مما أودع الله تلك الطبيعة من أسرار الجمال؟

تضافرت أسباب القهر الجسدي والنفسي على النمر، وتوالت الأعوام بعد فراق جمرة حتى هزل جسمه وعلاه الكبر فغدا يشكو بياض الشعر وأموراً أخرى، فالخوف مما هو قادم أشد عليه مما مضى، بينما تتعمقه آلام الخديعة وتحبط فيه أي شعور بالأمل، وأي أمل يرجوه من جمرة التي تتماهى كل يوم في السفر، ومع ذلك لا يصدر منه إلاّ تحيتها بالسلام واستمطار السماء لها بالغيث المغيث، فيقول:⁵⁵

تَصَابَى وَأَمْسَى عِلَاهُ الْكَبِيرُ
وَأَمْسَى لَجْمَرَةَ حَبْلٌ غَرَزُ
وشاب، ولا مرحباً باليبا
ض وبالشيب من غائب يُتَنَظَرُ
فلو أنّ جمرة تدنو له
ولكنّ جَمَرَةً مِنْهُ سَفَرُ
سَلَامُ الْإِلَهِ وَرَيْحَانُهُ
ورحمته وسماء درزُ
غَمَامٌ يُنْزَلُ رِزْقُ الْعِبَادِ
فَأَحْيَا الْبِلَادَ وَطَابَ الشَّجَرُ

لعلّ "جمرة" في الشطر الثاني من البيت الأول على ما فيها من هجر وغدر لم يتعمق تأثيرها في نفس الشاعر كما هي "جمرة" في صدر البيت الثالث وعجزه، فقد جاءت مرة بعد "لو" التي يتعلق بها اليأس تعلق الغريق بقشة واهية وجاءت الثانية بعد "لكن" الاستدراكية لتكون قاطعة لأي أمل في نفسه فالمقابلة بين صدر البيت وعجزه انعكاس الواقع النفسي الذي يعانيه الشاعر بكل أبعاده المريرة.

وأخيراً تلقى جمرة قدرها المحتوم، فقد جاء رجل اسمه "حزام" ينعى إلى النمر زوجته جمرة، فأسقط في يديه وحزن حزناً شديداً، وأنشأ يرثيها بأبيات جمعت في صورها ومعانيها بين عادات العرب في الجاهلية وروح الإيمان في الإسلام، وكان النمر مخضرم العمر والشعر - معاً - على نحو ما يتضح في ديوانه، وقد ذكر اسم "جمرة" مرات عديدة في قصائده حية، والآن يذكر اسمها بعد موتها إيماناً منه بأن الموت هو "بيان الحق" إن صدق خبر نعيها، الذي بلغه عن طريق "حزام" ولشدة وقع الخبر يتساءل متشككاً في صحة الأمر، ولا يلبث أن يسلم بقضاء السماء فيدعو لقبرها بالسقيا كما كانت العرب تدعو للميت بأن يسقي الغمام تراب قبره. يقول الشاعر:⁵⁶

أَلَمْ تَرَ أَنَّ جَمْرَةَ جَاءَ مِنْهَا

بَيَانُ الْحَقِّ إِنْ صَدَقَ الْكَلَامُ

نعاها بالتداء لنا حزام

أَحَقُّ مَا يَقُولُ لَنَا حِزَامُ؟

فَلَا تَبْعُدْ وَقَدْ بَعِدَتْ، وَأَجْدَى

عَلَى قَبْرِ تَضَمَّنَهَا الْغَمَامُ

حِكْمُهُ وَوَصَايَاهُ: باب الحكم والوصايا من أوسع أبواب شعر النمر وقام - في معظمه - على مضامين إسلامية ومفردات مستوحاة من ألفاظ القرآن والحديث النبوي، وأنشأ الشاعر في صورته الفنية مزيجاً من القيم الدينية والمجاز البلاغي - وهو من الذين دخلوا الإسلام وحسن إسلامهم - فاكتسبت دائرة المعرفة لديه حكمة قرآنية وفصاحة نبوية تتجسد في توجيهه الناس إلى السعي نحو غايات دنيوية وأخروية، كما في قوله:⁵⁷

فَأَوْصِي الْفَتَى بِابْتِنَاءِ الْعُلَا

وَأَنْ لَا يَخُونَ وَلَا يَأْتِمَا

وَيَلْبَسَ لِلدَّهْرِ أَجْلَالَهُ
 فَلَنْ يَبْنِيَ النَّاسُ مَا هَدَمَا
 وَإِنْ أَنْتَ لَأَقِيتَ فِي نَجْدَةٍ
 فَلَا يَتَهَيَّبُكَ أَنْ تُقَدِّمَا
 فَإِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنْ يَخْشَاهَا
 فَسَوْفَ تُصَادِفُهُ أَيُّمًا
 وَأَحِبُّ حَبِيبَكَ حُبًّا رُوِيْدًا
 فَلَيْسَ يَعُولُكَ أَنْ تُصَرِّمًا
 وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ بُغْضًا رُوِيْدًا
 إِذَا أَنْتَ حَاوَلْتَ أَنْ تَحْكُمَا⁵⁸

لقد أودع أبياته هذه سبع وصايا تتمثل الأولى بابتداء العُلا والثانية بعدم الخيانة والثالثة باجتباب الآثام والرابعة بإعداد العدة لكل حال والخامسة بالجرأة والإقدام والسادسة بالاعتدال في حب الناس والسابعة بالاعتدال في بغضهم.

ويبدو تأثره في البيت الرابع واضحاً بمعنى قوله تعالى: ⁵⁹ (قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ) وتأثره من حيث الألفاظ والمعاني ورقة الأسلوب في بيتيه - الخامس والسادس - بحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القائل: ⁶⁰ (أَحِبُّ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا). وربما سمعه من الرسول وقد كان أحد صحابته.

وجاء النفي المطلق في حكمته "فلن يبني الناس ما هدمًا" بواسطة "لن" تأكيداً على أن الفتى إذا ضيع مجده لن يردّه له الناس، فيجب أن يعتمد على نفسه دون الاتكال على الآخرين.

ومن ثم أتى بأدوات وحروف ذات أثر في جمال التراكيب وقوتها، فنراه يلون بين "أَنَّ" الظاهرة والمقدرة، و"لَا" النافية والناهية و"إِنَّ" و"إِذَا" ويكثر من "الفاء" الاستئنافية، وأورد "سوف" للتأكيد، تصديقاً للمعنى الذي أفاده من الآية الكريمة، وحذف فعلاً مقدراً بعد "أينما" الشرطية يمكن تقديره "وُجِدَ" أو "كان" أو ما إلى ذلك، وتوَحَّى سهولة اللفظ ووضوح المعنى في أبياته.

كلمة "الفتى" من الألفاظ التي كثرت على ألسنة العرب - شعراً ونثراً - ولا يراد بها فترة زمنية محددة من حياة الإنسان، فاستعمال الكلمة يغلب عليه التوسع المجازي وليس المدة العمرية بمعناها اللغوي، ولهذا عمد الشاعر إلى توجيه وصيته بابتداء العلا إلى "الفتى" من باب حفز الهمة والحيوية لدى المخاطب ونراه يكرر لفظ "الفتى" في موقع آخر ولا يريد به سنّ الفتوة من حياة الإنسان فقط، يقول:⁶¹

لَعَمْرِي لَقَدْ أَنْكَرْتُ نَفْسِي وَرَابِنِي
 مَعَ الشَّيْبِ أَبْدَالِي الَّتِي أَتَبَدَّلُ⁶²
 يَوَدُّ الْفَتَى بَعْدَ اعْتِدَالِ وَصَحَّةٍ
 يَنْوُو إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيُحْمَلُ
 يَوَدُّ الْفَتَى طُولَ السَّلَامَةِ وَالْغَنَى
 فَكَيْفَ تُرَى طُولُ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ؟
 وَجَاءَتْ كَلِمَةُ "فَتَى" عِنْدَ طَرْفَةِ مَفْتَخَرٍ بِشَجَاعَتِهِ:⁶³
 إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خَلْتُ أَنَّنِي
 عُنَيْتَ، فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدْ
 وأما تعبير "لعمري" في البيت الأول فهو من صيغ القسم في الجاهلية، وقد مدح الأعشى المحلق الكلابي بقوله:⁶⁴

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة

إلى ضوء نار باليفاع تحرق

وقد أكد النمر في أبياته الثلاثة حقيقة قديمة جديدة تدل على ضعف المخلوق وتبدل حاله من قوة إلى ضعف ومن صحة إلى سقم ومن شباب إلى مشيب، حتى يبلغ أرذل العمر فلا يقوى على القيام إلى قضاء حوائجه فيحمله من حوله ويصبح كلاً على أهله، بيد أن غريزة حب البقاء تدفعه إلى التمني بطول العمر أكثر فأكثر، ولكن ماذا يفعل طول العمر لصاحبه في نهاية المطاف؟ إنه التحسر على ما فات من قوة وحيوية، ويأس مما هو قادم، وهل يتحقق للفتى كل ما يوده؟ أم أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن؟

وبالرغم من حب البقاء عند جميع المخلوقات وخاصة عند الإنسان الذي يفترس أمواله من أجل استمرارية حياته إلا أن طول البقاء بعد فقدان الحيوية والقدرة الجسدية وربما العقلية يبلغ بالمرء حد اليأس من جدوى بقائه فيرى الموت حلاً لإنهاء معاناته. وهذا ما حدا بالشاعر إلى أن يعبر بصورة فنية "لبست العيش" بما أصابه من ملل جعله يقول "قدني" وهذا يقودنا إلى استذكار موقف زهير من تكاليف الحياة وقد بلغ الثمانين:⁶⁵

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش

ثمانين حولاً - لا أبالك - يسأم

ويؤكد النمر حتمية الموت لكل مخلوق من خلال اتباع المنايا له، فإن لم يتبعها تتبعه، ولعل الفعل "أعلم" يوضح انسجام العلم اليقيني النابع من إيمانه بالله مع الواقع المعيش فهو يسلم بالقضاء الذي يوجب على الناس أن لا ييخلوا بأموالهم فمصيرهم الفناء تاركين كل ممتلكاتهم وراءهم، يقول النمر:⁶⁶

فإني قد لبست العيش حتى

ملكْتُ من الحياة، فقلتُ: قدني

وأعلم أن سُنْدْرُكْنِي المنايا
 فَإِنْ لَا أَتَّبِعُهَا، تَتَّبِعُنِي
 رَأَيْتَ الْمَانِعِينَ الْمَالَ يَوْمًا
 مَصِيرُهُمْ لِإِلْقَاءِ فَدْفُنِ
 فهل بَلَغَ الشاعر رسالته إلى الناس وقد عاش تجربة طويلة ومراساً عملياً
 حينما وثَّق الرسالة بقوله "لبست" و"أعلم" و"رأيت"؟
 وتمضي السنون، وتتقلب الأيام، فيأخذ الشاعر العبرة البالغة، ثم يقدم
 رؤيته الفلسفية مستوحاة من آي الذكر الحكيم علَّ الناس يعتبرون، فيقول مرة
 "أرى الناس" ومرة "ألا يا لَذَا الناس" على نحو ما ذكر في أبياته الآتية:⁽⁶⁷⁾
 أرى الناسَ قَدْ أَحْدَثُوا شَيْمَةً
 وفي كُلِّ حَادِثَةٍ يُؤْتَمَرُ
 يُهَيُّونَ مَنْ حَقَرُوا سَيِّئُهُ
 وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ بَقِيٌّ أَوْ يَبْرُ
 وَيُعْجِبُهُمْ مَنْ رَأَوْا عِنْدَهُ
 سَوَامًا، وَإِنْ كَانَ فِيهِ الْغَمَرُ
 أَلَا يَا لَذَا النَّاسِ لَوْ يَعْلَمُوا
 نَ: لِلْخَيْرِ خَيْرٌ وَلِلْشَّرِّ شَرٌّ
 فَيَوْمٌ عَلَيْنَا، وَيَوْمٌ لَنَا
 وَيَوْمٌ نُسَاءُ، وَيَوْمٌ نُسَرُّ

وذلك لما رأى الناس عليه من فعل سوءٍ يعود عليهم بعواقب وخيمة، حيث
 يحتقرون الفقير وإن كان ذا همة عالية وأخلاق حميدة، ويعجبون بمن كثر ماله
 وساء خلقه، ويذكّرهم بما أعدَّ الله - سبحانه - يوم الحساب من خير لفاعل
 الخير ومن شرّ لفاعل الشرّ وكأنه ينظر إلى قوله - تعالى - : ⁶⁸ (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ

ذَرَّةٌ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ). ويختم أبياته بحكمة قيّمة، وإن كان البيت الذي تضمّنّها أقرب إلى النظم منه إلى الشعر، فالمعنى قيّم ولكنه جاء ضمن أسلوب ركيك تمثل في تكرار كلمة "يوم" أربع مرات، والتضاد "علينا" "لنا" "نساء" "نسر" ليس فيه خيال أو صورة فنية، وربما يرجع ذلك إلى مقصد الشاعر من أبياته، وهو تقرير حقائق وإيصال المعاني بشكل مباشر وليس ذلك بعذر.

وكما تكون وصية النمر موجهة منه إلى الناس عامة، فإنها تصدر إلى زوجته التي تشكل معه اللبنة الأساسية في نسيج المجتمع وبنائه، فطالما ألحت عليه "جمرة" بالاحتفاظ لنفسه وأسرته ببعض ماله، وطالما خالفها الرأي في ذلك إلى أن عقر آخر بعير عنده لضيوفه، فضاقت ذرعاً به وأخذت تلومه وتعذله فأجابها قائلاً:⁶⁹

بَكَرْتُ بِاللُّومِ تَلْحَانَا

في بعيرٍ ضَلَّ أَوْ حَانَ⁽⁷⁰⁾

عَلِقْتُ لَوْأً، تُكَرِّرُهَا

إِنَّ لَوْأَ ذَاكَ أَعْيَانَا⁽⁷¹⁾

إِعْلَمِي أَنَّ كُلَّ مُؤْتَمِرٍ

مُخْطِئٌ فِي الرَّأْيِ أَحْيَانَا⁽⁷²⁾

فَإِذَا مَا لَمْ يُصِْبْ رَشْدًا

كَانَ بَعْضُ اللَّوْمِ تُثْيَانَا⁽⁷³⁾

ويفترض النمر فقدان البعير أو هلاكه فماذا تفيد "لوها" التي ما تفتأ تُسمَعُ إياها؟ ولماذا الإلحاح في اللوم ما دام الإنسان عرضة للصواب والخطأ؟ قد يكون اللوم لا فائدة منه بعد وقوع الحدث وفوات الأوان.

فهرس الهوامش

1. الأغاني 157/19، والإصابة 542/3.
2. طبقات فحول الشعراء 136، الأغاني 157/19، أسد الغابة 39/5.
3. الأغاني 160/19، الإصابة 543/3، شرح شواهد المغني 182.
4. الشعر والشعراء 227، الأغاني 159/19.
5. خاص الخاص 101 الثعالي.
6. الأغاني 284/22، الحيوان 366/2.
7. الشعر والشعراء 227، الاستيعاب 1533/4، الخزانة 153/1.
8. الاستيعاب 1533/4، الخزانة 153/1.
9. طبقات فحول الشعراء 133.
10. الأغاني 159/19.
11. ديوان النمر بن تولب — الطريفي ص 108.
12. يشكر: بطن من ربيعة. النهاب: اسم احد أيامهم المشهورة. القنا السمهري: الرماح المنسوبة إلى سمهر، وهو رجل كان يقوم الرماح.
13. الجلال: المضاربة بالسيوف. شلالا: متفرقين. كناية عن هزيمة الأعداء.
14. الديوان 75.
15. الكلاب، بضم الكاف: موضع فيه ماء. ضراراً: فعال من الضر. منقر: هم بنو منقر بن عبيد ابن مقاس.
16. أجزت: من جاز الصحراء أي قطعها. والسهوب: الأرض الواسعة. الفلاة: الصحراء. مسفر: على وزن مفعّل بكسر الميم كثير السفر.
17. الكراع من البعير: ما دون الكعب. يواشك: يسرع. السبب: المفازة. الأغبر: كثير الغبار.
18. الديوان 107.
19. شبه الناقة بالفحل في قوتها وتحملها المشاق. جنح الأصيل: مالت الشمس إلى الغروب.
20. الديوان 58.
21. أسباد: بقايا الشيء. شبه النمر نفسه بالسيف قوة ومضاء.

22. تظل تحفر عنه: رسب السيف داخل الأرض وغاب عن الأنظار مسافة الذراعين والجسم. هذا إفراط ومغالة.
23. الديوان 53.
24. خاطر بنفسك: كناية عن السعي الدؤوب والشجاعة في طلب الرزق. الجلوس مع العيال: كناية عن التقاعس.
25. جاءت المقابلة في البيت تأكيداً لمعنى البيت الأول وحفزاً للمروءة.
26. الديوان 74.
27. اللامعات اللامحات: الذكيات من النساء الحسنات. الكشح: تأتي بمعنى الخاصرة والمراد هنا ما بداخله من أسرار.
28. النوى: هنا بمعنى الدار البعيدة.
29. الجدث: القبر. العاري الأولى: الخالي. العار الثانية: العيب.
30. الديوان 110.
31. الغارب: ما بين السنام والعنق. وكانت العرب إذا طلق أحدهم امرأته يقول لها: حباك على غاربك. أي افعلي ما شئت بعد اليوم
32. قِيمها: زوجها.
33. الديوان 37.
34. أبلغت إليك: وصلت إلى غايتها ومرادها. خال: الرجل السمح يشبه بالسحاب الماطر. هاضب: كثير المطر.
35. الديوان 133.
36. ضفن: روي "ضغن" أي أنه يعطي ذوي الأرحام وذوي العجز وذوي الضغن — كرمًا منه وسخاءً —، الضفن: من الضيافة أي الضيف ومن يرافقه.
37. الديوان 72.
38. الركاب: الإبل. الزفيف نوع من مشي الإبل. الكور: رحل البعير أو الناقة.
39. الديوان 57.
40. في الشعر والشعراء: "أَوْصَ بَدْعُهُ مَنْ يَهِيْمُ بِهَا بَعْدِي"، وفي الأغاني: أَوْكَلْ بَدْعُهُ مَنْ يَهِيْمُ بِهَا بَعْدِي.
41. الديوان 41.

42. مغلّ: ضامر الحقد الدفين في نفسه وهو الذي ينطبق على جمرة. كاذب: هنا بمعنى خيانة الأمانة.
43. راكب: أراد نفسه. السّرحات: جمع سَرْحَة، وهي شجرة وارفة الظل.
44. أبلّيتها: أحسنت إليها وقت المصائب وحفظت ودّها.
45. ضنت: بخلت. حاجب: هنا جانب من الوجه.
46. ديوان قيس بن الخطيم ص79.
47. الديوان 68.
48. زينتك: دفعتك. أجأ: اسم جبل. جبّة: موضع.
49. دَقَرَى: اسم روضة بعينها. تخيلُ: يتخيلُ، والتخيلُ تلَوْنُ النبات بالنور وتغيّره من وقت لآخر. الأُف: لم تمسّ بيد أو غيرها. يغمّ: يعلو فيخفي ما تحته من نباتات صغيرة. الضالّ: نبات السّدر. بحارها: المراد اتساع الروضة.
50. الديوان 126.
51. "قوم إذا اجتمعوا" روي في المغني للبغدادي 282/3 "قوم إذا احتملوا". بأشأم: اتجهوا نحو بلاد الشام فازدادوا بعداً.
52. عزّت: غلبت، يقول: كأن جمرة أو غلبت جمرة الروضة في الحسن. أرام: موضع.
53. ميثاء: أرض سهلة. أمرعت: أخصبت.
54. ديم: سحب ماطرة. سجّام: يشبه الدّيم في مطره اللّين.
55. الديوان 63.
56. الديوان 113.
57. الديوان 113.
58. بغضاً رويداً: برفق ودون إفراط أو تفريط. تحكم: تكون حكيماً.
59. سورة الجمعة آية 8.
60. رواه الترمذي، صحيح البخاري ومسلم.
61. الديوان 98.
62. أبدالي: منها الشيب بعد الشباب، والضعف في القوة، والاعتلال بعد السلامة، والسقم بعد الصحة.
63. ديوان طرفة 85.

64. ديوان الأعشى 141.
65. ديوان زهير 230.
66. الديوان 133.
67. الديوان 64.
68. سورة الزلزلة الآيتان (7-8).
69. الديوان 135.
70. بكرت: أي زوجته جمرة. حان البعير: هلك.
71. تكون "لو" ساكنة الواو إذا جعلتها أداة، وإذا أخرجتها إلى الأسماء شددت واوها وأعربتها.
72. المؤتمر: المستبد برأيه.
73. ثنيانا: الكلام المعاد، لا فائدة منه.

فهرس المراجع

1. أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، دار الكتب المصرية.
2. الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، دار المعارف — القاهرة.
3. الأعلام، خير الدين الزركلي — بيروت، دار العلم للملايين، 1990.
4. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية.
5. خاص الخاص، للثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1965.
6. خزنة الأدب، للبغدادي، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1979.
7. ديوان النمر بن تولب العكلي، محمد نبيل الطريفي، بيروت، دار صادر، 2000.
8. شرح القصائد العشر، أبو زكريا التبريزي، القاهرة، المطبعة المنيرية، 1933.
9. شعر النمر بن تولب، نوري حمودي القيسي، بغداد، مطبعة دار المعارف، 1968.
10. الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار المعارف، 1966.
11. طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمعي، شرح محمود محمد شاكر، القاهرة، 1974.
12. كتاب الصنائع، للعسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم.
13. مجمع الأمثال، للميداني، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، 1985.
14. الموشح، للمرزباني، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، 1965.

Abstract

The present study is based on the following two points:

First: The study of the character of a poet who spent part of his life during the Jahli (Pre-Islamic) period as a knight and one of the Arab noblemen, then a companion of the prophet Mohammad (peace be upon him) during the early Islamic period when he acquired wisdom from Islam; a wisdom shown in his verse.

Second: The study of his poetic inclinations which were reflections of his values. In his poetry, he was not concerned with panegyric and satire which could have affected other poets' moderation and realism.

Considering the artistic data in his work, Alnamer can be considered a poet with a natural (unaffected) style. He chose lexis that represented his own ideas and senses without having to wait for others' gratification or disapproval.